العرب
الجمعة 2020/01/24
السنة 42 العدد 11596

«الفوضى الخلاقة» كل ما تبقى لميليشيات إيران في العراق

مقتل قاسم سليماني يكبّل قدرة طهران على التعامل مع الأزمات

رهان على خلق واقع جديد

تواجه الميليشيات العراقية الموالية لإيران تحديات نوعية بعد مقتل قائد الحرس الثوري الإيراني قاسم سليماني، الذي كان يدير تحركاتها وينسق في ما بينها، وذلك مع انحسار نفوذها السياسي والميداني بعد إطاحة الاحتجاجات الشعبية برئيس الوزراء عادل عبدالمهدي. وأمام خطر فقدان الميليشيات لحزام سياسي في الحكومة العراقية المرتقبة، تدفع الميليشيات إلى التغطية على الاحتجاجات المناهضة للحكومة والتي كانت بمثابة تحدّ لسيطرة الفصائل على السلطة عبر استنهاض مشاعر الكراهية والعداء للولايات المتحدة.

بغداد - أعطى قتل الولايات المتحدة للقائد العسكري الإيراني الجنرال قاسم سليماني في بغداد هذا الشهر دفعة جديدة لحلفاء إيران في العراق الذين باتوا يستشعرون خطر تلاشي مكاسبهم السياسية بعد تفجر موجة احتجاجات شعبية ذاقت ذرعا بالمحاصصة الطائفية والأجندات الخارجية في إدارة شؤون البلاد.

وتواجه الميليشيات الإيرانية، الذراع العسكرية، للأحزاب السياسية تحديات كبيرة على أرض تفجرت فيها الأورام الاجتماعية بعيدا عن منطق الولاء والمذهب والتخوين، إذ يطالب المحتجون العراقيون منذ أكتوبر الماضي بحكومة وطنية تحارب الفساد وتعالج الاقتصاد المتدهور.

أمام تمسك المحتجين بشعارات لا للمحاصصة ولا للمذهبية "نريد عراقنا"، وجدت الميليشيات والأحزاب الموالية لإيران نفسها أمام خيارين، فشل الأول وهو امتصاص غضب الشارع في تحقيق الأهداف فباتت تفكر مليّا في الخيار الثاني وهو خيار "الفوضى الخلاقة" علّها تفرز وضعا جديدا تستطيع من خلاله إعادة التموقع.

عداء واشنطن للمّ الشمل

مع اشتداد وطأة الاحتجاجات وتمسك المحتجين بمطالبهم الأساسية وهي حكومة وطنية ولاؤها للعراق فقط باتت إيران تشعر بالخطر على مصالحها وخارطة نفوذها، فعدم القدرة على إخماد الاحتجاجات والتورية عنها عبر وسائل عدة باتت طهران تخشى تمرد ميليشياتها أيضا.

وللتعامل مع هذا الوضع كثفت القيادات السياسية المتحالفة مع إيران الدعوات هذا الشهر لانسحاب القوات الأميركية في ما يعد استعراضا نادرا للوحدة بين الفصائل الشيعية المتنافسة، لكن نوابا عراقيين لا يتوقعون أن تستمر هذه الوحدة لفترة طويلة وستستمر الصراعات على السلطة.

وربما تتأخر العملية أكثر من ذلك بسبب الخلافات بين مقتدى الصدر، زعيم التيار الصدري ومنافسه السياسي الرئيسي هادي العامري الذي يملك تحالف الفصائل المدعومة من إيران بزعامته نفوذا كبيرا في البرلمان.

وللمرة الأولى منذ قرابة عامين تم التصويت في البرلمان على أساس طائفي على مطالبة الحكومة بإخراج القوات الأميركية من البلاد. وصوّتت الأحزاب الشيعية بالموافقة على الاقتراح بينما قاطع النواب السنة والأكراد الجلسة.

وقال سياسي عراقي كبير، في تصريحات لوكالة رويترز، مشترطا عدم نشر اسمه "عندما واجه العراق تحدي تنظيم الدولة الإسلامية الأمني كانت هناك عملية سياسية صحية لكن البلد الآن مفتت واختفت تلك العملية".

لطالما سعت إيران والميليشيات الموالية لها إلى انسحاب القوات الأميركية من العراق، وجاء مقتل قاسم سليماني قوة دفع جديدة لهذا الجهد. لكن هناك الكثير من الأسئلة العالقة حول ما إذا كانت إيران حقا قادرة على الاستفادة من الموقف.

إن انسحاب القوات الأميركية من العراق سيكون انتصارا لإيران. وقد اتبعت طهران منذ فترة طويلة استراتيجية ذات شقين لدعم الولايات المتحدة؛ الميليشيات التي تنفذ الهجمات، وكذلك ممارسة الضغط السياسي على المشرعين العراقيين المتعاطفين مع قضيتها.

ولعل أكثر ما أوضحته الانتفاضة العراقية اليوم هو حجم الرفض لهيمنة الأحزاب والشخصيات الفاشلة والفاسدة أولا، وللنفوذ الإيراني في البلاد ثانيا، وللمحاصصة المقيتة وللطائفية ثالثا. والأهم أن هذا الرفض انفجر في المحافظات الجنوبية التي تسكنها غالبية كانت إيران، والأحزاب الطائفية التي تسير في فلكها أو التابعة لها، تدعي بأنها تمثلها وتحرص على حماية مصالحها وأنها تشكل بيئتها الداعمة.

وزاد نفور العراقيين من إيران بعد أن وصفت طهران الانتفاضة الشعبية العراقية بأنها مؤامرة أميركية-إسرائيلية، في وقت يعرف قادة إيران، قبل غيرهم، أن هذه الهبة الشعبية في أساسها جاءت بسبب حجم فساد النماذج الحاكمة التي يدعمونها وحجم فشلهم في إدارة البلاد وحجم الرفض الذي يحمله العراقيون لهم ولبقائهم في الحكم.

انقلاب الميليشيات

ليس من اليسير على القيادة الإيرانية أن تبتلع حقيقة أن كل ما خططت له من أجل فرض وصايتها على العراق، منذ تسلمت مفتاحه، منذ الغزو الأميركي وبداية تطبيق فكرة الفوضى الخلاقة التي بشّرت بها كونداليزا رايس يوم احتل الأميركيون العراق.

> شيعة العراق الذين أدرجتهم إيران ضمن رعيتها يقفون اليوم في مواجهة مشروعها، وقطع طريق الإمداد الذي يصل إلى سوريا ولبنان واليمن

تواجه طهران اليوم حقيقة أن ما عملت عليه منذ عقد من الزمن ذهب أدراج الرياح وأن شيعة العراق الذين أدرجتهم ضمن رعيتها لم يكونوا في حقيقة الأمر كذلك بل هم اليوم يقفون في مواجهة مشروعها، لا من أجل إنهاء هيمنتها على العراق فحسب بل وأيضا من أجل قطع الطريق التي تيسّر لها خط الإمداد الذي يصل إلى سوريا ولبنان واليمن.

ويبدو أن الأحزاب، التي صارت تشعر بأن زمن نهاية هيمنتها قد بات قريبا، تحاول اليوم كسب المزيد من الوقت من أجل إعادة ترتيب أوراقها بعد أن تم تقييد قدرتها على استعمال ميليشياتها في القمع المباشر.

عملت إيران في عدد من البلدان العربية على تشكيل عدة ميليشيات. ويمكن لطهران الاعتماد على هذه الميليشيات في حال نشوب نزاع مع الولايات المتحدة، لكن إلى أي مدى تبقى هذه المجموعات وفية للجهة الراعية لها؟

كان قاسم سليماني وحلفاؤه في المنطقة أكثر العارفين أن الاحتجاجات الشعبية في العراق تُشكل تهديدا خطيرا على المشروع الإيراني. فعندما قُتل، كان واصلا لتوّه من دمشق إلى بغداد كجزء من محاولاته لمعالجة الوضع المتوتر.

كان سليماني مُنشغلا بالتعامل مع هذه التحديات المحلية المحتدمة التي يواجها هو وحلفاؤه، كما أن الهجمات على السفارة الأميركية وعلى قاعدة عسكرية كانت مُصممة جزئيا لتحويل الانتباه عن الاحتجاجات.

ورغم أن موته لا يشكل نهاية مشروع الهيمنة الإيراني، إلا أنه يمثل ضربة قوية لقدرة النظام على توسيع نفوذه والتعامل مع الأزمات المتأججة. ففي جميع الدول التي أوجدت فيها إيران نفوذا عميقا، تُرك حلفاؤها معرضين لخطر التوجهات الشعبية والمنافسين المحليين. فالرجل الوحيد الذي لديه سجل حافل في التعامل مع مثل هذه الأزمات قد مات وهو يحاول ذلك.

وازداد حجم الوعي السياسي لدى الجيل الجديد من الشباب العراقي خاصة في الوسط الشيعي الذي كانت تُمارس عليه سياسة تجهيل ممنهجة جعلته يُصدق أسطوانات الأحزاب الدينية الفاسدة وميليشياتها من خطر المندسين والمتطرفين، واللعب على وتر التناقضات الطائفية لتبرير السياسات التي تضر العراق وتصب في مصلحة إيران وتملأ جيوب الفاسدين ومافيات السلطة والدين، وهذا على الأرجح ما دفعهم لاستخدام القوة المفرطة وغير المبررة لإنهائها، لكن انتهاء التظاهرات لفترة لا يعني أن المتظاهرين اقتنعوا بالوعود أو خافوا من الرصاص ما دامت أسبابها باقية دون معالجات حقيقية.

من جهة أخرى أثبتت الأحداث والقمع بالرصاص الحي والتصريحات والمواقف صلة الميليشيات والكثير من الأحزاب والسياسيين وحتى الحكومة العراقية بإيران، من خلال تقديم مصالحها ورواياتها على رواية المتظاهرين السلميين ومعالجة الأسباب التي دفعتهم دفعا إلى النزول للشوارع والمطالبة بحقوق مشروعة وبأدوات سلمية قوبلت برصاص القناصة .

هل ينجح إسماعيل قآني في تعويض قاسم سليماني

بغداد - أثارت الضربة التي شنّتها القوات الأميركية في 2 يناير 2020، والتي استهدفت موكبا لميليشيا مدعومة من طهران في مطار بغداد ما أدى إلى اغتيال قاسم سليماني الذي كان يقود فيلق القدس التابع للحرس الثوري الإيراني، جدلا دوليا واسعا حول مستقبل قدرات الفيلق وعملياته.

كان سليماني من أكثر العساكر الإيرانيين قوة وقدرة، وتمتع بنوع من الكاريزما ما مكنه من التأثير على مسارح القتال في الشرق الأوسط. لكنه لم يكن مؤسس فيلق القدس الذي كان يترأسه، ولم يكن حتى قائده الوحيد الذي حقق نجاحات مهمة في تطبيق السياسة الخارجية الإيرانية على أرض الواقع.

عبر العقود، تطور الفيلق إلى كيان مهم بعد أن كان قوة استكشافية تابعة للحرس الثوري الإيراني، حيث نشرته طهران في لبنان خلال حربه مع إسرائيل سنة 1982 للمساعدة في تنظيم العناصر الشيعية المسلحة التي شكلت جناح حزب الله العسكري. لا ينبغي أن يكون الأمر مفاجئا، حيث كانت سياسة إيران المتمثلة في تحويل الفصائل المسلحة الإقليمية إلى حركات سياسية مسلحة نقطة من استراتيجية وضعت منذ أيام النظام الإسلامي الإيراني الأولى، وقبل أن يصبح سليماني قائدا لفيلق القدس بمدّة طويلة.

وكان سلف سليماني الذي تولى قيادة فيلق القدس، أحمد وحيدي، مسؤولا عن عملية تفجير السفارة الإسرائيلية في بوينس آيرس بالأرجنتين سنة 1992، وعن تفجير مركز ثقافي يهودي في نفس المدينة بعد سنتين من العملية الأولى. وتعتبر إيران هذه الهجمات الإرهابية نجاحات كبيرة في صراع أصبح وجوديّا، ويدور بينها وبين إسرائيل إلى اليوم.

بقي سليماني شخصية ثانوية في الحرس الثوري الإيراني حين حوّلت إيران السجناء الشيعة العراقيين، الذين أسروا في الحرب العراقية الإيرانية بين سنتي 1980 و1988، إلى مسلحين تمكنوا من لعب دور رئيسي في الساحة السياسية العراقية بعد سقوط صدام حسين الناتج عن الغزو الأميركي لبلاده في سنة 2003.

استطاع سليماني الاستفادة من هذه النجاحات المبكرة عندما قررت القيادات الكبرى في الحرس الثوري ترقيته في سنة 1997. وتحوّل من قيادة العمليات على طول الحدود المضطربة مع أفغانستان التي تسيطر عليها طالبان إلى قائد لفيلق القدس. ومن جهة أخرى، خدم إسماعيل قاني في منصب رئيس هيئة الأركان المشتركة لاستخبارات الحرس الثوري، قبل توليه منصب نائب قائد فيلق القدس في 1997 ليعمل مع سليماني ويتحوّل إلى أكثر رجل يثق به.

يفتقر قاني إلى الكاريزما التي اشتهر بها سليماني. وكانت هذه السمة هي التي ساعدت قائد الفيلق السابق على تطوير قناة مباشرة تواصل بها مع المرشد الأعلى للثورة الإسلامية، علي خامنئي، وتجاوز بفضلها السلسلة القيادية الرسمية التي اعتمد سلفه عليها لنقل المعلومات إليه وتلقي الأوامر منه.

ومع ذلك، كان قاني عنصرا مهما في نجاحات سليماني. وركّزت عملياته الرئيسية على المناطق الواقعة شرق إيران، أين مكّن القوات من تنفيذ خطة البلاد الجريئة المتمثّلة في تجنيد الشيعة الأفغان والباكستانيين وتسفيرهم إلى سوريا للقتال في صفوف الرئيس بشار الأسد.

وبينما يسعى قاني إلى تلبية التوقعات العالية التي تنتظرها القيادة من أي قائد لفيلق القدس، تبقى مهامه المباشرة واضحة. وتعهد بالانتقام لسليماني من خلال طرد القوات الأميركية من الشرق الأوسط، رغم أن هذا الهدف ما زال بعيدا في العراق المجاور. هناك، يحاول فيلق القدس تجميع قوة العديد من وكلاء إيران المتمثلين في الميليشيات الشيعية لاستخدام نفوذها السياسي بطريقة تجبر القيادة العراقية على طلب ترحيل 5200 جندي أميركي من أراضيها.

يدرك المسؤولون الأميركيون أن في طرد قواتهم من العراق خطرا، حيث سيؤدي ذلك إلى إخضاع البلاد لسيطرة إيران مما سيعيق جهودهم المبذولة لمنع عودة ما يسمى بالدولة الإسلامية. لذلك، أصبحوا يهددون بفرض عقوبات كبيرة أخرى إذا أنهت الحكومة العراقية الوجود الأميركي هناك.

وقال المبعوث الأميركي الخاص بإيران، براين هوك، إن قاني سيلقى مصير سلفه إذا سار على النهج نفسه، مشيرا إلى أن موت سليماني "خلق فراغا لن يتمكّن النظام الإيراني من ملئه".

> بينما يسعى إسماعيل قآني إلى تلبية التوقعات العالية التي تنتظرها القيادة من أي قائد لفيلق القدس، تبقى مهماته المباشرة واضحة

يدرك النظام حاجة قاني وفيلقه إلى موارد كافية لتحقيق أهداف البلاد الطموحة.

في 2019، نشرت وكالة استخبارات الدفاع الأميركية تقريرا بعنوان "القوة العسكرية الإيرانية"، أين أكدت على انتماء 5 آلاف فرد إلى فيلق القدس.

ويتوقع المحللون أن تعمل قياداته على تعيين عسكريين إضافيين من فروع الحرس الثوري الإيراني ووزارة الاستخبارات والمؤسسات الإيرانية الأخرى، وذلك لتقييم الفرص الجديدة التي يمكن استغلالها للضغط على القوات الأميركية والدبلوماسيين الأميركيين وحلفاء الولايات المتحدة في المنطقة وفي جميع أنحاء العالم.

ويشير التّجمع الكبير الذي شهدته جنازة سليماني إلى قدرة فيلق القدس على انتداب مجموعة كبيرة من المتطوعين الجدد لتجنيدهم.

وسيمكّن توسيع الفيلق للقيادات من تحديد عدد أكبر من الأهداف المحتملة وسيسمح لها بالتخطيط لمجموعة أكبر من العمليات التي تهدف إلى حرمان الولايات المتحدة والقوات المتحالفة معها من الوصول إلى المنطقة وتحقيق الأمن فيها.